بسم الله الرحمن الرحيم

أسطورة الرمال

٦ / ١٠ / ١٤٤٦

الحمد لله...

لا حديث أعظم من القرآن، ولا أخبار أصدق منه في البيان، وهل تعلم قصصًا أعظم منه في النفس أثرًا، وأشد منه في الوعظ سلوكًا.

إن تقليب القصص القرآنية يعيد للنفس زكاءها، ويَقْلِب عن النفس كُدْرتها وكَدَرها ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ الروم: ٩.

فمن قص على نفسه القرآن تفكر، وترك الطغيان والتجبر، ورأى فيها أعظم سلوى للمستضعفين، لأن القرآن ليس وقائعَ ماضية فحسب، بل سنن وإشارات باقية، ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف: ١٧٦.

والحديث اليوم عن قوم من العرب، لُقبوا (بأسطورة الرمال)، كانوا قد بنوا في طرق أسفارهم أعلامًا ومنارات، كيلا يضل السائرون في تلك الرمال المتحركة، سكنوا جنوب الجزيرة العربية، كانوا طوالًا جسامًا، إذْ بلغ أطولهم مئة ذراع، وأقصرهم ستين ذراع[1]، بلغت بهم حضارتهم وقوتهم أن سبقوا من قبلهم فكانوا على قوة في البأس، وعِظَمٍ في السلطان، وتغلبٍ في البلاد. حيث قال الله عنهم: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ الفجر: ٨ وقالوا هم عن أنفسهم: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فصلت: ١٥.

إنهم قوم عاد.

وكانت العرب تصف أي شيء عظيم قوي بأنه عاديّ[2]، نسبة إلى قوم عاد، وقد عُرفت قوم عاد براجحة الرأي، وسداد العقل[3]، فإذا أرادوا مدح قوم قالوا: لديهم

---

(١) انظر: حاشية الطيبي على الكشاف (٦/٤٣٧)

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٩/١٥٦)

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٨/٢٠٦)

عقول كأحلام عاد. لكن أعماهم الطغيان، وشدةُ الغرور، حتى استحمقوا الصالحين، واستخفوا بجانب رب العالمين، حتى قالوا لنبيهم وقد امتلأوا إعراضًا ونكوسًا ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ الشعراء: ١٣٦ - ١٣٨، **فتغطرسوا** بالمال، وتباهوا بالقوة والعيال، وكانوا يرون أن لهم الخلافة بعد عصر الطوفان، وغرق الأرض بأسرها، حتى ذكّرهم نبيهم بنعمة الاستخلاف في الأرض، فقال هود لهم واعظًا ومنبهًا: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾الأعراف: ٦٩

حفهم الله بالجنات، وفجر لهم من العيون، وأغدق عليهم من السوارح والبوارح والأنعام ما جعلهم في نعمة وافرة، قال هود لهم:﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ الشعراء: ١٣٢ - ١٣٤

وقد كانوا من رفاهية عيشهم، وقوة أجسادهم أنْ بنو

الأبراج الطوال، والقصور المشيدة، قال تعالى:﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ الشعراء.

فكانوا يبنون فوق كل ريع أي: مرتفع. آية، أي: أعجوبة، فقد بنوا بنيات كثيرة على المرتفعات في طرق المسافر، وسمَّى الله هذه البنايات بالمصانع، والمصانع: خزانات المياه الضخمة.

ثم قال الله متهكمًا بهم: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ فوصلت أُمَّة عاد في حالِ انْحِطاطِها مبلغًا كبيرًا حيث حولت ما كان موضوعا للمصالح إلى مفاسد (وهي هذه المصانع)، فعمدوا إلى ما كان مبنيا لقصد تيسير السير والأمن على السابلة من الضلال في الفيافي المهلكة فجعلوه مكامن لهو وسخرية، كما اتخذت بعض أديرة النصارى في بلاد العرب مجالس خمر، فليس عيبُ الله عليهم أنهم بنوا هذه الخزانات الضخمة (فهي مصالح للناس) إنما عيبُ الله عليهم أنهم اتخذوا هذه المصانع أماكن يجاهر فيها

بالكفر، ويصرح بها بالفجور[١].

قال أبو الدرداء واعظًا: "يا أهل دمشق، إنه كانت قبلكم قرون، يجمعون فيرعون، ويبنون فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملهم غرورا، وأصبح جمعهم بورا، وأصبحت مساكنهم قبورا، ألا إن عادا ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين؟".

وقد كانت عاد ذاتَ جيوش جرارة، غليظةَ الانتقام، قال الله عنهم على لسان نبيه: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ الشعراء: ١٣٠ فعندهم إفراط في الأذى والانتقام، والبطش في الانتقام من صفات أهل النار، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "صِنْفانِ مِن أَهْلِ النّارِ لَمْ أرَهُما: قَوْمٌ مَعَهم سِياطٌ كَأَذْنابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بِها النّاسَ...".

بل كان فيهم أمراء اشتهروا بالعناد، وعُرِف عنهم الأمر

---

(١) انظر ما ذكره ابن عاشور في خلاف المفسرين، وإلى رأيه الذي توصل إليه من سورة الشعراء (١٩/١٦٦).

بالتمرد والعصيان: ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ هود: ٥٩.

وقد حثهم حنبيهم على الاستغفار والتوبة، وقال: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ هود: ٥٢ لكن أكثرهم كذّب وكفر، ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الشعراء: ٨ - ٩

فردوا دعوة الحق، واحتقروا نبيهم، ورموه بالسفاهة، فقالوا :﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ الأعراف: ٦٦، وقالوا أن هودًا مسوس، بسبب تكذيبه بآلهتهم، يخوفون الناس أن من كذب بآلهتهم تَعَرَّضت له بالمس، فقالوا:﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ هود: ٥٤، وكلامهم في غاية الحمق، وبعيد عن مقارعة الحجة بالحجة، فاتهموا نبيهم أولًا بالجنون، ثم بالمس، لأنه كلام ملفق من نوع ما يصدر عن السفسطائيين، فجعلوه

مجنونًا وجعلوا سبب جنونه مسًّا من آلهتهم.

فلما غلبهم هود بالحجة، وأفلسوا من الإدلاء بالمحجة، أقاموا التحدي، ونصبوا العناد على أقصى حد، فقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الأحقاف: ٢٢

فبدأ مقت الله عليهم، فأمر الله السماء فأمسكت، والأرض فأجدبت، فعاشوا الجفاف، وذاقوا لباس الجوع، قم أمر الله بجند لطيف من جنوده، قوي من خلقه، فهاجت الريح، فتكاثف السحاب، و ياليتهم عقلوا عن الله تحذيره كما فعلت قوم يونس لما رأوا العذاب فتابوا، بل تمادوا بحماقتهم، واستبشروا على فسادهم، وظنوا أنه مطر غيث، وماء رحمة، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الأحقاف: ٢٤ – ٢٥

فسلط الله عليهم ليالي نحسات، وريحًا مُستمرًا في عدد أيام حسومًا، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية

أيام حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة، وقد كانوا يقولون تكبرًا وغطرسة ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ الشعراء: ١٣٧ - ١٣٨

فما أشد غرور الإنسان وقد كان ينادي من أشد مني قوة! وما أبشع كِبْر الحضارات عنما تكثر البطش وشدة الانتقام وتسترخص الدماء، متسلطة على الضعفة والأبرياء! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فصلت: ١٥، هذه نهاية الظلمة، وخاتمة الطغاة الفجرة، وهذا حكم الله في المعاندين، ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ فصلت: ١٦

فاتقوا الله أيها المؤمنون، واحذروا الطغيان على العباد، ومن نشر العتو والفساد، واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربنا غفور شكور.

الخطبة الثانية: الحمد لله.

ما أكثر ما يتعارك الحق والباطل، والإيمان والكفر، والإصلاح والإفساد، فإن في قصص القرآن من ذلك كثير، وخبر النهايات على ذلك بين واضح وشهير، فلا دولة إلا إلى الحق، ولا إدالة إلا على الباطل.

فقصة هود شاهدة على أن إيذاء الصالحين ونبزهم بالألقاب لا يغير حقيقة الحق، ولا يدل إلا على طريقة قديمة لأهل الباطل في التنفير من الصلاح.

وفي قصة هود من الشواهد أن المربي والمصلح يعتدل في طرحه، ويتناءى عن التكبر في دعوته، ويدعو بالتي هي أحسن، فليس الداعي والمربي بمسيطر على الناس، بل الواجب عليه قول الحق، وعلى الله التكلان.

وفي قصة هود من الشواهد أن على المرء أن يذكر إخوانه بنعم الله، ويحذرهم من الاغترار بالنعمة، فليست النعمة صك ضمان يأخذ المرء معها الخلود، بل الأيام دول، والشواهد عواقب، والمؤمن يرجو ويخاف.

وفي قصة هود من الشواهد أنه لا خير وإلا سببه التمسك بالدين، فهو قوام الحياة، وأساس العدل، وعليه نصب كل ميزان إلى يوم الدين، قول نوح ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾ هود: ٥٢.

وفي قصة هود من الشواهد أنه سيادة الله على خلقه أخضعتهم تحت قانون رباني، وسنة كونية لا تتبدل ولا تتغير، وهي أن الظلم له عواقب مشينة، والعناد له مآلات وخيمة، فكل من كفر بأنعم الله هو بين عذاب عاجل، أو عقاب آجل، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ الأحزاب: ٦٢